# المبحث الأول
# المقالة الذاتية

## مدخل:

تعد المقالة الذاتية لدى محمود درويش المجال الخصب الذي من خلاله يستطيع أن يبوح بكل ما يريد أن يقوله.. من تراكمات وتجارب إنسانية وحياتية مرت به بالغة في تأثيرها وأهميتها في نفسيته التي تفجرت إزاءها انفعالاته الصادقة عبر امتداد أحاسيسه ومشاعره الذاتية؛ لأنه يحمل قلب فنان.. تضطرم وتفور في قلبه تلك الأحاسيس والمشاعر وانفعالاتها.. وأصبحت بحق " العصارة الحية التي يثمرها التجاوب الذاتي للأديب والكاتب تجاه تجربة يعانيها ويعيشها نبضاً وفكراً، ثم يفرزها في تدفق وعفوية، نسيجاً حياً يميز أسلوب شخصه ويشف عن نفسه وينطق بلسان حاله ويجسد كيان ذاته"[1]. والمقالة الذاتية لدى درويش متنوعة التجارب ذات صور متميزة بألوانها وخطوطها وتحتفظ بطابعها الخاص وقسماتها الفارقة[2].

وذاتية المقالة بصورة عامة " تنبع من رغبة الكاتب في التعبير عن تجاربه الشخصية وتأملاته في الكون والحياة والناس من خلال عمل إبداعي يستمد عناصره من مشاعره ومن وجهة نظره الخاصة؛ ولذا يأتي نتاجه نسيجاً ذاتياً يبرز الملامح الشخصية لكاتبه واضحة جذابة تستهوي القارئ وتستأثر بلبه من خلال أسلوب أدبي يثري العاطفة ويثير الاهتمام بما يستند إليه من صياغة فنية قوامها الحس اللغوي والمهارات البيانية التي تسهم في بلورة انطباعات الكاتب وتوضيح رؤيته الذاتية والوجدانية أو الذهنية بلورة أدبية تحمل سمات الإبداع الفني الأخاذ الذي يمتع ويقنع"[3] وهذا ما فعله محمود درويش وهو يبث في مقالاته الذاتية أحاسيس ومشاعر صادقة نابعة من وجدانه المتوهج وانفعالاته إزاء ما يواجه في حياته الذاتية.. فبرز في مقالاته الاتجاه الوجداني بما فيه من صور ومشاهدات شخصية، فضلاً عن الوصف، والحب والحنين إلى الوطن، والاتجاه الإنساني من خلال القيم الإنسانية والرثاء.

**1- الاتجاه الوجداني:**

يتجه محمود درويش في الاتجاه الوجداني إلى ذاكرته وحياته المعاشة المليئة بالعواطف المتأججة والحنين والشوق، وهي عواطف خصبة دائمة التوهج، نلمح في اتجاهه هذا الحب الخالص والاشتياق للعالم.. للوطن، للحبيبة، للطفولة فاخرج من

---

(1) فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 7.
(2) فن المقالة: 102.
(3)فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 69.

دواخله وذاته الصادقة كل الصور الحياتية ومشاهداته وتجاربه الشخصية وأباح عن كل معاناته لاسيما في غربته عن الوطن الذي يحبه كثيراً.. الوطن الحبيس المسور بالأعداء.. وبذلك يكون هذا الاتجاه قد اتخذ " الوجدان لحمته وسداه فتأتي العاطفة أهم ما عند الكاتب وابرز ما يعبر عنه محاولاً نقله إلى قرائه.. يأتي هذا الاتجاه بمضمونه الوجداني نسيجاً حياً تغزل العاطفة خيوطه وتصطبغ بها ألوانه"[1].

واهم الدوافع التي حدث بدرويش في مقالاته الذاتية الوجدانية تعود إلى طفولته المليئة بالفرح والانكسار تارةً ولحظات الحزن والأمل تارةً أخرى[2]، وما عاناه الأديب من لحظات المرارة في أثناء خروجه من وطنه وعودته، ومن ثم الغربة وكل أجواء الحرب والكارثة المتمثلة بضياع الوطن واحتلاله؛ لذلك يقول في ذكرياته عن الطفولة في مقالته (ما زلت طفلاً):

((**يغادر أصدقاؤك المدينة، وتبقى وحدك. تشرب القهوة وحدك وتحزن وحدك. كل العائلات يلتئم شملها غداً، وليس من حقك أن تقتحم بيت أحد؛ وتبقى وحدك.. الحل في البحر، في الصباح الباكر تذهب إلى الشاطئ وحدك وتطفئ نارك في الماء الأزرق، تأخذك الموجه ولا تعيدك عليك أن تعود وحدك. تتمدد على الرمل الساخن في الشمس والهواء والوحدة... لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا ينكسر الموج؟. الشمس كثيرة والرمال كثيرة والماء كثير. ويتكلمون حولك بلغة تفهمها فتشتد حزناً ووحدة واغتراباً**))[3].

وعلى ذلك فإن محمود درويش في كل ما يكتبه " يحس إحساساً قوياً بموضوعه ويعبر عنه بعبارة قوية رائعة"[4] كما هي واضحة في النص السابق من يوميات حزنه..

**أ- الصور والمشاهدات الشخصية:**

تمتاز حياة محمود درويش بأنها تبحث عن مستقر ـــــ مكان زماني ـــــ يوحد بين شتات الغربة والعودة، بين الحنين واحتضان الوطن الجريح.. بين الماضي ـــــ الطفولة الجميلة ـــــ والحاضر والمستقبل المتألمين.. بين الحلم الجميل الغافي على الآمال الجميلة وبين الواقع المرير المنكسر (الكابوس) إنه خيط رفيع يجمع بين هذه الأشتات المتباينة.. وخلال هذا الخيط تتولد صور الحياة والمشاهدات اليومية لدى محمود درويش " والنفس تتعلق بهذه الصور تعلقاً قوياً، ترد إليها حيويتها التي كانت

---

(1)فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 89.

(2)السيرة في إطار الشعر: قراءة في ديوان محمود درويش لماذا تركت الحصان وحيداً: 139.

(3)يوميات الحزن العادي: 98.

(4) محاضرات عن فن المقالة الأدبية، د. محمد عوض محمد: 63.

بالذات حينما كانت إحساسات فعلية وبذلك يصبح بإمكانها أن تتغلب على الألم الذي يعانيه الجسم في الوقت الحاضر"[1].

إن لحظة الخروج من الوطن تهيمن على ذاكرة الكاتب، فيصور من خلال انفعالاته اتجاهها صور عديدة تجسد العواطف المتكسرة على أجنحة الألم والدروب وأشجار الزيتون والقمر وتداعيات الطفولة الباكية كما في مقالة (القمر لم يسقط في البئر)[2] التي صور فيها الكاتب لحظة الخروج من الوطن، من خلال الحوار الذي دار بينه وبين أبيه:

((**حين كنت صغيراً... كنت تخاف من القمر؟.**

**يقولون ذلك. ولكن ليس صحيحاً أن الأطفال يخافون القمر دائماً..**

**ـــــ لولاه لكنت يتيماً قبل أواني، لم يكن قد سقط في البئر، كان أعلى من جبيني وأقرب من شجرة التوت، التي توسطت دار جدي. وكان الكلب ينبح عندما يقترب. وحين دوت أول رصاصة دهشت لحفلة زفاف تحدث في المساء. وحين ساقوني إلى القافلة الطويلة رافقنا القمر إلى طريق عرفت فيما بعد أنها طريق المنفى**))[3].

وحينما نقرأ مثل هذه الصورة: (اليتم، شجرة التوت، دار جدي، الكلب ينبح، حفلة زفاف، ومن ثم القافلة الطويلة) تنتقل بنا حرارة تلك الصور حيث (طريق المنفى). تذكرنا بالصور المتنوعة التي تعبر عن فهم طبيعة الحياة التي عاشها محمود درويش في (يوميات الحزن العادي).

ومقالة (شارع المتنبي) هي بحث عن صور مهيمنة ومتحركة في مواطن الألم من نفس الأديب.. يبحث فيها عن غياب الأسماء العربية لماذا محاها الأعداء.. وهو في ذلك يريد أن يذكر العرب بمجدهم بدلالات المعاني التي تحملها تلك الأسماء فيقول:

((**تعود إلى البيت بسيارة أجرة؟. تتكلم مع السائق بلغة عبرية سليمة، وشكلك لا يعلن هويتك. يسألك السائق: إلى أين يا سيدي؟. تقول: إلى شارع المتنبي. تشعل سيجارة لك وسيجارة للسائق لأنه مهذب... تنزل من السيارة، وتقرر العودة إلى البيت مشياً، تصيبك نوبة قراءة أسماء الشوارع، فعلاً، محو أسماءها. صار صلاح الدين شلومو، وتتساءل: لماذا حافظوا على اسم المتنبي!. وعندما تصل إلى شارع**

---

(1) النفس الإنسانية، محمد جلوب فرحان: 130.

(2) يوميات الحزن العادي: 30. وينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (30) لسنة 1973: 30- 32.

(3) المصدر نفسه: 32.

**المتنبي تقرأ الاسم، لأول مرة، باللغة العبرية، فتجد أنه (المونت نفي) وليس المتنبي كما كنت تتصور!))**[1].

إذن هذه الذكريات وتكرارها الكثير يدل على تجذرها العميق في ذاته، لأنها لحظات نفي الطفولة، وتدمير مكانها الأول، ثم الانتقال إلى مكان آخر يشكل انقلاباً في حياة درويش، المليئة بالبراءة[2].

وحياة درويش مليئة بالأحداث والتطورات والمشاهدات وصور الحياة التي تقلبت رؤى وأحلام وآمال درويش الأديب والفنان فكان بحق " الفنان المبدع ـــ الذي هو ـــ مزيج تكامل متناسق بين اتجاهين, متنافرين، أولهما: حياة الفنان الخاصة, وثانيهما عملية الإبداع الفني اللا شخصية "[3]. ولعل خروج الفلسطينيين من ديارهم خارج الوطن, كان له الأثر الكبير الذي سحبت ذات الأديب المتأثرة بذلك الخروج, مما أدى إلى ميل لا شعوري لتتشكل هذه الذاتية إلى إحساس الغربة التي هي أساساً " حالة اجتماعية نفسية فيها يشعر الفرد بالإحساس بالمسافة أو الانفصال عن مجتمعة أو جماعته "[4] ويتوضح هذا الإحساس في مقالته: (هكذا أعيش وأناضل في إسرائيل) إذ يقول:

((**أذكر نفسي عندما كان عمري ست سنواتـ كنت أقيم في قرية جميلة وهادئة، هي قرية البروة الواقعة على هضبة خضراء، ينبسط أمامها سهل عكا، وكنت ابناً لأسرة متوسطة الحال عاشت من الزراعة. وعندما بلغت السابعة، توقفت ألعاب الطفولة، وأني أذكر كيف حدث ذلك.. أذكر تماماً: في إحدى ليالي الصيف، التي اعتاد فيها القرويون أن يناموا على سطوح المنازل، أيقظتني أمي من نومي فجأة، فوجدت نفسي مع مئات من سكان القرية في أعدو في الغابة، كان الرصاص يتطاير من على رؤوسنا، ولم أفهم شيئاً مما يجري. بعد ليلة من التشرد والهروب وصلت مع أحد أقاربي الضائعين في كل الجهات، إلى قرية غريبة ذات أطفال آخرين. تساءلت بسذاجة: أين أنا؟ وسمعت للمرة الأولى كلمة (لبنان)))**[5].

في هذه المقالة نجد محمود درويش يسترجع طفولته، ومن ثم تشرده وتغربه،

---

(1) يوميات الحزن العادي: 90-91.

(2) عن الشعر ومكائد الطفل، د. محمد لطفي اليوسفي، ضمن كتاب زيتونة المنفى: دراسات في شعر محمود درويش: 32.

(3) الفكر: طبيعته وتطوره، د. نوري جعفر: 71.

(4) بين الاغتراب والأصالة، د. أمير اسكندر، الملحق (51) لجريدة الثورة، العدد (3403) في 1979/8/16: 21.

(5) شيء عن الوطن: 212- 213.

وانتهاء بطفولته, لتبدأ حياة مليئة بالمتاعب:((**يخيل لي أن تلك الليلة وضعت حداً لطفولتي بمنتهى العنف. فالطفولة الخالية من المتاعب انتهت.. وأحسست فجأة أني أنتمي إلى الكبار.. توقفت مطالبي وفُرضت عليَّ المتاعب**))[1].

لقد قدم محمود درويش لوحات عديدة في مقالاته تشتمل على صور ومشاهدات للخروج من أرض الوطن.. ليتذكر خلالها صور الطفولة, والحب, والحياة الهانئة.. لكن ذلك لم يمنعه من أن يحلم بالعودة ليرسم لها لوحات من الصور الصادقة التي تسللت إلى نفسه, كلما يحلم بالتسلسل والعودة إلى الوطن.. فيقول:

((**وبعد أكثر من سنة، عشت خلالها حياة لاجئ, أبلغوني ذات ليلة أننا سنعود غداً إلى البيت.. أذكر جيداً أني لم أنم في تلك الليلة.. لم أنم من شدة الفرح. فالعودة إلى البيت تعني - بالنسبة لي - نهاية الجبنة الصفراء, نهاية تحرشات الأولاد اللبنانيين الذين كانوا يشتمونني بكلمة (لاجئ) المهينة.. وخرجت إلى رحلة العودة, كان الظلام مخيماً على كل شيء وكنا ثلاثة: أنا، وعمي, والدليل الذي كان يعرف مجاهل الدروب في الجبال وفي الوديان, إني أذكر الزحف, على البطون لكي لا يرانا أحد. وبعد رحلة مضنية, وجدت نفسي في إحدى القرى. ولكن ما أشد خيبة أملي: لقد وصلنا إلى قرية دير الأسد, وهي ليست قريتي, لا بيتي هناك ولا زقاقي. سألت: متى نعود إلى قريتنا.. إلى منزلنا, ولم تكن الأجوبة مقنعة.. ولم أفهم شيئاً. لم أفهم معنى أن تكون القرية مهدمة.. لم افهم معنى أن يكون عالمي الخاص قد انتهى إلى غير رجعة**))[2].

وهكذا نرى إحساس محمود درويش بضياع الوطن بلا رجعة، والذي يقوي هذا الإحساس لديه محاولاته العديدة بالعودة إلى الوطن خلسة، التي باءت بالفشل وانتهت بإصدار قرار بعدم دخوله إلى ارض فلسطين البتة.

إن الصور والمشاهدات التي ارتسمت في مقالات درويش بكل ما تعكس من مناخات وتعقيدات كثيرة التي فرضتها المرحلة التي عاشها وقضية وطنه الحبيب. ترسو تجاربه وأفكاره على عمق تاريخي مجرب ومعاش وما تمتلكه بنيته الذهنية من تطور ووعي بما يجعله قادراً على مواجهة الإحباط والصعوبات التي واجهته والدافع الأكيد في قوة المقاومة لديه هو حبه العميق للوطن الذي كان بمثابة النعمة والجنة، وهو وصف يضفيه عليه في مقالة (شكوى الشهيد الفصيح):

((**وضعونا في خندق انتظار الموت سنين طويلة، وقالوا: هذا هو أمر الوطن، كنا قادمين من البيوت الطينية والأكواخ الخشبية، جياعاً وشبه عراة، ومرضى،**

---

(1) المصدر نفسه: 213.

(2)المصدر نفسه: 214- 215.

**ومعافين بك، كان رفرفة العلم تغطينا... وتحولت إلى هاجس، تغلغلت فينا، يوماً يوماً، وتجنحت من شيء إلى حلم، ليست لنا مطالب فأنت النعمة، وصرنا نقارنك بالجنة، وكنت المتفوق أبداً كلما ازددنا شوقاً إلى تفجير المعجزة. ما هي المعجزة؟ ما هي المعجزة؟ جاهزون للضغط على اللغم المربوط بالشريان.. جاهزون، ولكن الأمر لم يصدر، ولم تأمرنا يا سيدي، صارت القنبلة أثمن من القلب، وكنا ننتظر الأمر بالحرية! في انتظار هذا الأمر تحولت، أيها الوطن إلى وعد. متى يصدر الأمر فنلتقي بالوطن السحري. تساءلنا وتساءلنا، لا رغبة في الخلاص في الخندق العاطل عن العمل، بل توقاً إلى ملاقاتك... سنأخذك إلى أكواخنا ونأكل الجراد والبصل معاً، وننام معاً، ثم نصحو في أول الصباح بخفة ورشاقة لنبنيك وأنت مرتاح، الذين يحررونك هم الذين يبنونك يا سيدي الوطن، وستكون مثلنا ولنا جميعاً))**[1].

تمثل صور الحب للوطن بؤرة الرؤية لدى درويش، فليس ثمة حب يؤرق ويحن ويهز الأديب وهو يحاكي ويتساءل ويقاتل ويناضل عن امتداد حياته، إلا ليبوح عن هذا الحب الذي لا يغادر قناعاته الذي يستحيل إلى بوح أبدياً على بساط الزمن الدخيل والظالم كما يظهر في مقالة (تقاسيم على صورة القدس):

**((حدث مرة واحدة في حياتي أن رأيت التاريخ مدججاً بكل هذه الأسلحة وأغصان الزيتون الشرسة, لم يحدث أن تحول إنسان إلى صخرة, ولم يحدث أيضا أن تحولت صخرة إلى جندي. حدث ذلك في القدس, وكنت أنا الصخرة والإنسان والجندي... من علمني هذا الصمت؟ ومن علم القدس هذا الجمال؟ من سقاني ذبذبات هذا الزلزال؟ ومن علم القدس مرافقة هذا المساء الذي لا ينتهي؟ من علمني كل هذه الشجاعة؟ ومن علم القدس كل هذه السخرية؟ لا.. ليس الوطن انتماء الظل إلى الشجرة, ولا انتماء النصل إلى الغمد, كلا ليس الوطن علاقة قربى ودم. ليس الوطن دينا. ولا إلهاً. الوطن هو هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب, هذا الاغتراب الذي يفترسك في القدس. ومن هنا, تصبح الجنة أقرب.., لم يكن لقاء, ولم يكن وداعاً, اللحظة الفاصلة بين اللقاء والوداع, بين اللحم والعظم ـــ هي هذه الحالة التي تقابل فيها القدس))**[2].

وقد تميزت ذاتية درويش بعنفوانها, وتفجر ذكاؤه في تصوير الحلم والواقع, الحياة والموت, الوطن والاستلاب, الطفولة والرجولة, البطولة والخيانة.. كلها صور فأصبح بياناً نقياً يفدح فيه عن صدق المشاعر والوعي حول ما يدور حوله ويحاول حين يكشف عن معاناته وتجاربه ومحيطه ورواه أن يشرك العالم كله بمعاناته.. ويريد

---

(1) وداعاً أيتها الحرب وداعاً أيها السلام: 148- 150.
(2) يوميات الحزن العادي: 155- 156.

منه أن يرى الذي يحدث بعين أكثر واقعية وصدق لا يعجز القارئ أمام مقالاته الذاتية... وهي تعكس انثيالات وجدانية هي محصلة مشاعره المتدفقة الحرة التي تنساب مثل نبع ماء صاف.. وقد تقودنا مقالة (وطن بقلم الرصاص) إلى خارطة الوطن (فلسطين) التي حفرت في ذاكرة الأديب ولا زالت تتدفق في شرايين قلبه... لكنه حبيس, لكنه نشيد الدم كسكنة القلب: ((**إن العصافير ليست حرة, وان الوطن يولد في منفى, إني أروض حالتي والتصق بالبعيد, وزندي يتحرر في قيدي... يصير الوطن في حجم القبلة وفي مسافة الطعنة, فليعبر نشيد دمي جسر الحيرة وخيانة السيف... كان الوطن كله يختبئ خلف رصاصة, انطلقت فآفاق..**))[1].

أما صورة الحبيبة (المرأة) فهي تمتاز بأنها جندية لا تحزن، وهي قد تكون رمزاً للوطن (فلسطين) كما هو واضح في مقالة (والشارع لي):

((**حبيبتي لن تحزن.. ليست الحرب نزهة ولا احتفالاً، ولكننا كنا نُقتل بلا حرب ومن قلة الحرب، لم تبتهج أم بولادة طفل, كما تحتفل الأرض الآن بميلاد الأمة, عشرات السنين المكبوتة تستيقظ الآن من الحرمان.. وهذا موسم الزيتون، ولا تجمع إلا شظايا القذائف وعيون الشهداء هذا مهر الأرض التي نزف إلى الرجال... الفتاة تنام معي في الليل... في الصباح تصير جندية.. تعلوا! الأرض تغلي من الشهوة، والعاشق يرسف في الأغلال**))[2].

وفي اغلب الأحيان فإن صورة الحبيبة تتجسد في ملامح الحبيبة الغالية(فلسطين) لأن الأرض هي الحبيبة المتسلطة بحبها على الأديب، علـه يجد فيها نشوته وسلوته المضاعة مع ضياع فلسطين، وهذا ما يصوره درويش في القسم الرابع من مقالة (الفرح عندما يخون) فيقول:

((**وعلموك أن تحذر الفرح، وتسألك أمك، أن تعتني بسلامتك، والمصير كل المصير يأخذ شكل طلقة، ترى الحرب ولا ترى موتاً، تخرج منك الذكريات إلى الأبد، ولا وقت للتصور القادم. تذكر فجأة، إن فلسطين بلادك، يأخذك الاسم الضائع إلى عصور ضائعة، كأن هذه المرأة النائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط تصحو دفعة واحدة حين تناديها باسمها الفاتن حرموك من الأناشيد المدرسية القديمة وسيرة الثوار والشعراء الذين خاطبوها، الاسم يعود.. يعود أخيراً من رحلة العبث، تفتح خارطتها كأنك تفتح أزرار ثياب حبيبتك الأولى لأول مرة... وفي عكا أجلسك الحب على صخرة البحر، ترى إلى الخارطة وتصفر لحناً مرحاً مرحاً... تمد أصابعك**

---

(1)وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 12- 15.

(2) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 76- 77.

**الطويلة إلى أجزاء المرأة الذكية النائمة على ورق صقيل... ثم تقبلها وتعانقها وتموت من اللذة ـــ الوعد))**[1].

تحدد ثنائية الحرمان من الوطن والحبيبة صور ومشاهدات الشاعر الشخصية ليسترجع بها ذكرياته ماذا يفعل إزاءها هل " يقدم كشف حساب بعد أن ابتعد عنها زمنياً؟ أية رؤى وتخيلات، تذكرات وأحلام، تلك التي يستلها من مخزون لا وعيه ويلتقطها من قعر ذاكرته؟ لا يمكن طبعاً أن يعود الشاعر بعد أن نضج واستوى إلى طفولته مجردة، بل هي مقرونة بالمكان؛ لذا تغدو مدن الطفولة، مسرح تلك الرؤى والتذكرات، وتصبح شوارعها وأنهارها وبساتينها وبيوتها، جزءاً من ديكور الحلم الذي يبرق في الذاكرة وأحيانا تستهلك الأديب تفصيلات تلك المدينة، فنراها مجسدة كما مر بعيني طفل وتتعرف على تاريخها وجغرافيتها وناسها من خلال كوى فسيحة تفتحها ذاكرة الكاتب، وأحياناً أخرى تتأسس تلك المدن في وعي الكاتب وهو كبير فيلتقي من خلال وعيها المتكون"[2] وهذا ما تميزت به مقالة (الجبنة الصفراء) إذ يقول فيها:

**((جدي كان في مثل هذا الشهر يعيش على أعصابه, يكف عن الكلام ويكثر من الإصغاء للمذياع، ومن التدخين... كان يقضي يومه في قراءة الجرائد.. ويقضي ليلة من التأمل واستعادة الذكريات... وهو ينتظر... وهو الذي رباني، وكنت أحبه أكثر من أبي))**[3].

إن صور محمود درويش ومشاهداته هي ذكريات كامنة، أو صور حية معاشة، قد تكون لمواقع من الوطن المحتل، أو في المنفى، أو في أماكن اللجوء حيث يعيش اللاجئون في الخيام، هي حصيلة مشاعر حزينة، محاصرة، محاربة جائعة، وممزقة، وشهيدة، أو جريحة.

**ب- الغربة والحنين للوطن**

يعد موضوع الغربة والحنين للوطن من الموضوعات التي اتسعت لها فنية المقالة الذاتية الوجدانية, إذ يعبر محمود درويش عن حبه وحنينه للوطن, الذي فارقه طويلاً, منذ الطفولة وهو يعاني في المهاجر العربية من الغربة التي كما قيل عنها " غربة شعب ممزوج بعذاب لا نهاية له، فهو ليس نفياً، وليس هجرة، انه مأساة أمة كاملة "[4]. ولأنه عاش الغربة بنفسه، فان الحنين إلى الوطن يملأ فؤاده كما " يملا

---

(1) يوميات الحزن العادي: 140- 141.
(2) الأصابع في موقد النار، حاتم الصكر: 99.
(3) شيء عن الوطن: 201.
(4) الغربة والحنين في الشعر العربي الحديث، ماهر حسن فهمي: 86.

أفئدة اللاجئين ويستحوذ على مشاعرهم مما عانوا من آلام الغربة والرحيل، وعن تلك الأيام التي كان يحيلها اللاجئ يجوب البلاد من قطر إلى قطر آخر، لا يهدأ ولا يطمئن، ومن هنا نسمع صوت الكاتب والشاعر يصور لنا الغربة وحرقة الوداع والآلام التي تتولد من خلال النزوح والتوديع واللقاء "[1].

والغربة لدى محمود درويش تعني الموت والانكسار، ونعني أن يخفت إيقاع الحياة، وتنطفئ لحظات الأمل، ولا شيء سوى التعب والإعياء وانتظار الموت وتفعل الغربة فعلها المؤثر في ذاتيته بشكل عنيف وسافر، ففي مقالة (شيء عن الوطن) يقول:

((**هذا الوطن، الصغير كقبضة اليد، الواسع، مثل كتاب الأبد، هذا الرائع.. هذا الجارح والمجروح، هذا الوطن، هل يتحول إلى سجن لأبنائه؟.**

**لقد تمرس كثيراً، بكل الأشكال والألوان، مات كثيراً، عاش كثيراً. أسماؤه تتغير، وأشجاره تموت وتحيا، ونحن نعانقه عناق الموت ـــ حتى الموت... ومن هذه الحقيقة الساطعة كالشمس والخنجر، من هذا الانتماء المبدع، نأخذ أسباب الخضرة: لنا وطن.**))[2].

إذن (لنا وطن) ناقوس يدق في آفاق الغربة والحنين، هي عبارة عن تذكرة كل الأنام، يطلقها محمود درويش، لتكون بؤرة الألم التي تتمركز حولها كل أحاسيس الحياة المجهولة التي يعيشها وهي أحاسيس قلقة ومتوترة لكنها تنهض به، على الرغم من صوت الألم ونزيف الجرح لتبعث فيه الخضرة والحياة، لتتوحد صورة انفعالاته في عبارة (لنا وطن).. والبعد عن الوطن لدى الفلسطينيين كغيرهم من البشر، يشعرون بالوطن " الذي نكبه الاحتلال واستبد به الأعداء، فساءت أحواله واستنزفه الآفات وأهلكته المجاعة وضيعه التشرد... و توجعهم آلامه تسرهم أفراحه ـــ أن وجدت ـــ وقد عانى بعضهم مرارة الفقر، واكتووا بنار الفاقة، وعرفوا ذل الحاجة "[3].

والغربة تعكس في نفسية درويش وغيره إلى الحنين إلى الوطن، إلى أن يعري حقيقة الاحتلال، أن يقاوم، أن يناضل ويمكن القول عن محمود درويش بأنه صاحب قضية وتجربة، ولديه وسائل قوية ليطرحها ذلك " أن تجربته لا تعني تجمع الأفكار

---

(1) الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث، د. محمد شحاذة عليان: 86.
(2)شيء عن الوطن: 7.
(3) فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 48.

والوقائع بشكل ثانوي، بل هي تمثل إدراكاً ثقافياً وحسياً وعاطفياً لمجمل الحياة "[1]. التي يحياها في الوطن أو بعيداً عنه، ولكن الغربة تؤرقه وهي تعني لديه حالتين: " حين أجرب الموت وحين أجرب الحياة، ولقد مت لمدة ربع قرن وشبعت موتاً "[2]. هذا هو إحساسه بالغربة، نجدها في مقالة (ذهب إلى العالم. غريب عن العالم) يقول فيها:

((**واليوم، اليوم لم يذهب العالم إلى غرفة النوم، وقف على حافة الكرة الأرضية، وأمرني بالخروج من دائرة الإنسانية، لأنني حاولت أن اخترق الدائرة، حاولت الدخول... هكذا يفهمني العالم، وهكذا يريدني، لقد انتهى صراعنا ما دمت خرجت من فلسطين، وما عاد للنار حارس، واكتملت معادلة سلام العالم، وصار الأمن الدولي مشروطاً بغيابي عن فلسطين وعن الإنسانية. لم أودع أحداً، ولم أودع شيئاً، دحرجني كعب بندقية من الكرمل إلى الميناء، وكنت أتشبث بخاطرة الله واصرخ، حتى ضاع صوتي ووعيي، ولكن العالم وعدني بصداقة مقابل التوقيع على هدنة مع النفس، لأن الهدنة مع القاتل لا تتم إلا بعد الهدنة مع النفس**))[3]. والشعور الوجداني لدرويش هو شعور بألم ناشئ عن محاولة تجريد من الوطن والأمن: ((ولقد تصدق العالم عليَّ: أعطاني طحيناً وثياباً، وخياماً كثيرة لي ولأطفالي الذين لم يولدوا مقابل أن أعطيه الوطن والأمن، وحين كنت اشعر بالبرد في المنافي، كانت صحف الرأي العام العالمي تقيني من الأمطار والارتجاف، وحين كنت اشعر بالجوع، كانت فقرة من ثلاثة اسطر في خطاب رئيس دولة متحضرة تشبعني، وحين كنت اشعر بالحنين، كانت الأغاني الأجنبية المنبثقة من راديو الجيران، تجعل الرحيل تجربة جميلة... وهكذا يذهب العالم إلى غرفة النوم... وينساني، لا توقظوا الضحية، لئلا تصرخ))[4].

وبهذا الأسلوب الساخر يبث الأديب وجدانياته وما فيها من أحاسيس الضياع والاحتضار والموت وتصبح الغربة لديه " عاطفة واحدة ذات شخصية واحدة وطابع واحد، فكل عاطفة هي وحدة متميزة بنفسها، وخاصة في تركيبها وفي تكوينها ولها بعد ذلك وظيفتها وعملها ولها كذلك موضوعها الخاص وتاريخها الخاص"[5].

---

(1) أثر الفكر في الإبداع الفكري، ه. كزفنر، ترجمة: يوسف عبد المسيح ثروة، مجلة الأقلام، العدد(1) لسنة 1978: 26.

(2)يوميات الحزن العادي: 171.

(3) المصدر نفسه: 171- 172.

(4)المصدر نفسه: 171.

(5) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية، د. محمود محب الله: 46.

إن عاطفة الإحساس بالغربة تمتزج فيهل كل عواطف الكره والحقد والحب والألم والفرح والحزن، هي عاطفة شاملة نحو عالم كثير التحول عالم لا تشعر فيه بالاستقرار؛ لأن العيون تبقى موجهة نحو الوطن دائرة الحب الأبدي.. الغربة لديه رهان، سكينة على عنقه، موت مجاني:

**((ماذا يفعلون باليأس، اليأس صنو الموت، لا أريد من العالم شيئاً إلا أن يرفع سكينه عن عنقي، لقد كنت رهينة، أنا الرهينة منذ خمس وعشرين سنة في أيديكم، وأطلق اليأس سراحي، من يعيدني إلى الأمل غير إعلان يأسي!، ومن يحررني من الأسر غير قدرتي على الانتحار! ليذهب العالم إلى غرفة النوم، أنا صمام أمان العالم- هذا هو الدور الذي حددتموه انتم لي. ليس بوسعكم أن تحددوا لي شكل اعتراضي على موتي المجاني))**[1].

والحرب مع العدو الصهيوني هي وحدها التي ستنهي الغربة وتلبس الشوق والحنين ثياب الحياة الهانئة الآمنة التي يحلم بها محمود درويش لأن " الحرب ليست حادثة في تاريخ الوطن، بل هي حادثة في تاريخ الروح، لهذا تنتفض الروح وتحشد كل رموزها وأساطيرها دفاعاً عن الماضي والحاضر"[2] لذلك يقول في المقالة نفسها:

**((وجاء دوري الآن لأُسمي نفسي ما أشاء، وافعل ما أشاء، أقف في قلب العالم. انتزع ذراعي، ألوح بها في الهواء، أحولها إلى كرة والعب معكم.. أقذفها في شبكات عيونكم يا قضاة الحضارة، ليس من أجل الوطن، ليس من أجل الشعب، وليس من أجل الانتقام... هذه هي حريتي الوحيدة))**[3].

تخرج معاني الغربة والحنين للوطن عن مدلولاتها المعروفة في إثارة الحزن والبكاء الشخصي لتكتسب معاني جديدة، كالاحتجاج على التمزق، وتقويض المدن العربية في الوطن الحبيب، ويلفت النظر إلى حقيقة الغزاة الصهاينة، وينقل إحساسات وحالات العربي الفلسطيني أمام هذا الاحتلال، ففي مقالة (الوطن بين الحقيقة والذاكرة) يقول:

**((ما هو الوطن؟ الخريطة ليست إجابة، وشهادة الميلاد صارت تختلف، لم يواجه أحد هذا السؤال كما تواجهه أنت، منذ الآن وإلى أن تموت، أو تتوب، أو تخون، قناعتك لا تكفي، لأنها لا تغير ولا تفجر ولأن التيه كبير، ليست الصحراء أكبر**

---

(1) يوميات الحزن العادي: 176.

(2) قصيدة الحرب، محمد العزي، ضمن كتاب مكانة الشعر في الثقافة العربية المعاصرة، المحور الثاني: الشعر والتحدي: 18.

(3) يوميات الحزن العادي: 176- 177.

**من الزنزانة دائماً. وما هو الوطن؟ ليس سؤال تجيب عنه وتمضي، حياتك وقضينك معاً، وقبل ذلك وبعد ذلك هو هويتك. ومن أبسط الأمور أن تقول:**

**وطني... حيث ولدت، وقد عدت إلى مكان ولادتك ولم تجد شيئاً، فماذا يعني ذلك؟.. ومن ابسط الأمور أن تقول وطني حيث أموت.. ولكنك قد نموت في أي مكان، وقد تموت على حدود مكانين، فما يعني ذلك؟ وبعد قليل.. سيصبح السؤال أصعب، لماذا هاجرت؟...، لماذا هاجرت؟ منذ عشرين عاماً وأنت تسأل: لماذا هاجروا؟ ليست الهجرة إلغاء للوطن، ولكنها تحويل المسألة إلى سؤال.. لا تؤرخ الآن، حين تفعل ذلك تخرج من الماضي، والمطلوب هو أن تحاسب الماضي لا تؤرخ إلا جراحك، لا تؤرخ إلا غربتك.. أنت هنا.. هنا حيث ولدت وحيث يأخذك الشوق إلى الموت.. وما هــو الوطن؟ ولكنك جزء من كل، والكل غائب ومعروض للإبادة))**[1].

وهكذا يصير الوطن لدى درويش هو الإجابة، وهو الشوق والحنين إلى الماضي، وهو الجراح، وهو الكل الغائب المعروض للإبادة، ويضيع تاريخ الإنسان فيه، ليؤرخ الإنسان للجراح، أن الغربة والهجرة لا تلغيان الوطن أبداً بل إن الغربة والهجرة تستفيض بالثورة والجهاد والنضال من أجل الوطن هو الوطن؛ لذا سنرى في مقالات محمود درويش صور حافلة بالبطولة والاستشهاد إذ يحمل الوطن بين راحتي الشهيد. هذا ما جاء في مقالة (شكوى الشهيد الفصيح) التي قيلت على لسان الشهيد:

**((سيدي الوطن! لم أعد قادراً على الانحناء أمامك. ولم يعد بوسعي الاشتراك في حفلات توزيع الأوسمة على أبطالك العائدين، وحين تسللت إلى أحد مقاعد المتفرجين، زجرني أحد الحرس، وأعادني من حيث أتيت، فتدحرجت من هراوته إلى أول قبر.. واختبأت... هذا هو دوري... ولم اطلب ضريحاً خاصاً بي، لأن موظفي دائرة تسجيل البطولة لم يعترفوا باسمي المبعثر بين الهواء والرمل.. حين جاء الوزراء والسياح الأجانب وهواة جمع الآثار الحربية إلى جثة العاصفة النارية، كانت عواطفهم تتدفق على قطع الحديد المتناثرة.. أشلاء طائرات ودبابات، كانوا يجمعونها بلهفة تشبه لهفة أمي وهي تجمع ما نسيه الحصادون في الحقول. وحين مروا، مصادفة، بأشلاء جسمي واسمي، ابدوا إعجابهم بالتضحية واشمئزازهم من اللحم البشري، وقالوا: ليست هذه قطعا نادرة، ولا تصلح للمتحف والديكور والذكرى وتركوني هناك))**[2].

لقد استطاع محمود درويش من خلال هذا المدخل إلى مقالته أن يصور بسخرية عالية هول الرأي الأجنبي ومشاعره إزاء قضية فلسطين. وما هي أشلاء

---

(1) يوميات الحزن العادي: 51.

(2) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 146- 147.

الشـهيد إلا دليـل علـى تفاهـة الـرأي العـالمي إزاءهـا. إذ يصـبح الشـهداء هـم الأمـوات والضحايا.. ومن شدة الكسل تلمع توابيتهم وتزخرف أضرحتهم. ومع كل ما يقال حول الشـهادة والشـهيد فانـه يبقـى رمـز الـوطن ونبضـها الـذي لا يخفت أبداً، فيقول محمـود درويش في المقالة ذاتها:

((**هذا هو دوري يا سيدي الوطن. خادمك في الحياة هو خادمك في الموت بلا أجر... ومن كـان فقيـراً حيـا يواصـل عملـه فـي خدمـة الشـهداء الأغنيـاء ميتـاً، علـى حياتي السلام، وعلى جثتي ينزل الظلام، والموتى من شدة الكسل يلمعون توابيتهم ويزخرفون أضرحتهم ويحولونها إلى مزار قومي، لا تظن أن هذا الأمر يهمني، فمن لـم يكترث باسمه حيـا لا يكترث بمستقبل ذاكرة شـهيد! والأبطـال دائمـاً أحيـاء ومـن عائلات عريقة**))[1].

إن حديث الشهيد مع الوطن الذي جاء على شكل إشارات وتلميحات للمرارة التي يعيشها الوطن وأبناؤه، هي بمثابة بيانات احتجاج على الغزاة وقسوتهم، وإعلان عن ضياع الوطن الحبيب، ودليل على غربة الأديب ومنحة وطنه التي لم تنته أبداً. يقول: ((**وضعونا في خندق انتظار الموت سنين طويلة، وقالوا: هذا أمر الوطن**))[2] ولكن الذاكرة تبقى دوماً تمتلك حب الوطن والحنين إليه، وما الغربة إلا إثارة لتلك الذاكرة بالشوق وتومئ بالجهاد والنضال والشهادة والموت من أجل الوطن الذي تبقى الذاكرة تحتضنه ويبقى التوق إلى عودته إلى أبنائه الفلسطينيين، وطريق العودة وتحرير أرض الوطن هو سفر أبطاله وشهدائه الذين لن يتوانوا في الدفاع عنه.

---

(1) المصدر نفسه: 147.
(2)المصدر نفسه: 148.

**ج- الوصف**

يبرز الوصف في مقالات محمود درويش ليشكل فيها " النمط الفاعل الذي يؤدي وظيفته... في المقالة ويتحول إلى أداة تطور المعاني وتكشف الموضوع وتبلور الحالات والمواقف"[1] إذ يصور الكاتب في مقاله الوصفي البيئة المكانية، التي عاشها تصويراً ينم عن إحساس عميق، وبصر نافذ وإدراك واعٍ، مع دقة الملاحظة والتعاطف مع الطبيعة والوصف الحي الذي ينقل أحاسيس الكاتب[2]. وهذا ما نجده في مقالة (أين الحصان الخشبي) التي يقول فيها:

((**تنزل الشارع لتبحث عن بطاقة جميلة ترسلها إلى صديق فماذا نجد؟ لا صورة لوردة واحدة، ولا رسماً لشاطئ أو عصفور أو امرأة، لقد اختفت كلها لتعطي المكان للدبابة والمدفع والطائرة وحائط المبكى والمدن المحتلة ومياه قناة السويس المنقولة إلى هذه البطاقات، وحين تلمح غصن زيتون تجده مرسوماً على جناح طائرة مقاتلة من صنع فرنسي. وحين ترى فتاة جميلة تجدها مدججة بالسلاح، وحين تقع عيناك على مدينة تجد خلفيتها حذاء جندي، فيقع قلبك على الأرض ولا يبقى إلا أن تنكمش في زاوية الشارع المزدحم، لتفسح المجال أمام آلاف الأيدي الممتدة نحو بطاقات العيد الملونة..، ترسلها إلى يهود العالم تعبيراً عن فرحة البعث التاريخي، وعودة الأسطورة، وأنت لا تبعث إلى أصدقائك إلا صمت القلب الذي لا يصل، ويفاجئك الكرنفال في الشارع، ينفض عليك الضوء كما كان ينفض عليك وأنت خارج من زنزانة مظلمة، وأسراب من الأطفال. الحمائم مدججة بالسلاح، اللعبة سلاح والمتعة سلاح. وأنت ليس في طفولتك وشبابك غير حصان خشبي..**))[3].

وحين يوظف درويش الوصف في مقالته هذه فهو بذلك " يسعى لامتلاك وسائل التعبير وإتقان وسائل التأثير... التي تحفزه للخلق وتستحث عواطفه للإبداع لتجعله أقدر على مخاطبة جمهوره وأكثر سيطرة على بيئة "[4]. فإن أغلب الصور التي وصفها هي صور حية لما أصبحت عليه الحال في ارض فلسطين المحتلة. حيث السلاح، والغزاة وطائرة مقاتلة، الشارع المزدحم، والحمام المدجج بالسلاح وهو رمز للطفولة البريئة التي تركت ألعابها لتصبح اللعبة سلاح والمتعة سلاح، ولا يبقى من

---

(1) دير الملاك، د. محسن أطيمش: 268.
(2) المقال وتطوره في الأدب المعاصر، د. السيد مرسي أبو ذكرى: 74. وينظر: المقالة في الأدب العربي، د. حسين نصار، مجلة الفيصل، العدد (11) لسنة 1978: 19.
(3) يوميات الحزن العادي: 87.
(4) مسائل في الإبداع والتصور، جمال عبد الملك: 9.

وصفه للبيئة التي كان يعيشها سوى لعبته الوحيدة هي (الحصان الخشبي) إذ يتوقف زمن الطفولة عندها، وهو بذلك " لم يتوقف فقط عند وصف البيئة التي يعيش فيها كما أبصرها وأحسها بل خرج ورحل وصور لنا تأثره بالجديد الذي لم يألفه وانطباعاته التي سجلتها نفسه صدى لمشاهداته في رحلاته "[1]. فوصف العالم الجديد الذي عاشه الأديب في لجوئه تؤكده مقالة (ذاهب إلى العالم. غريب عن العالم) التي يشير فيها الكاتب إلى ما يرى من مشاهد وصور سواء أكانت مادية أم معنوية التي تسهم في تكوين الصورة الحقيقية عن تلك المشاعر النابضة إذ يقول فيها:

((**في ساعة متأخرة من الليل، يذهب العالم إلى غرفة النوم... ريح تهب فجأة، فتنعش الموتى، من أين تهب؟ من كل الجهات.. من الوطن، ومن علمهم هذه اللفظة المهجورة؟ شعراء يغنون على ربابة، اقتلوهم... وهكذا ينام العالم وهكذا يصحو، هو مدجج بالسلاح، وأنا مدجج بالقيود والعالم المدجج بالسلاح**))[2].

ويتتابع الوصف في هذه المقالة " من خلال شواهد المكانية، فهي علاقة وقول، فكرة وشاهدة، لغة وصورة، ماض وحاضر"[3]، فتصبح الصور فيها شاملة ومتكاملة.

أما مقالة (ازرق.. ازرق) ففيها وصف لشواهد جديدة ولبيئة اختلفت فيها الصور وتلاشت بعضها وربما فنيت بسبب الاحتلال. إنها زرقة مياه قناة السويس الداكنة، ويؤكد فيها الكاتب أن سطور هذه المقالة كتبت قبل حرب تشرين بعامين ونصف عندما زار مدن قناة السويس، ليصف فيها التحولات النفسية التي طرأت على العرب التي كانت متوقدة بأسراره الفاعلة، للتحرير والاستقلال والتوق إلى الصدام المباشر مع العدو فيقول فيها:

((**رأيت مياهاً كثيرة في حياتي، ولكنني لم أرَ ماء في مثل هذه الزرقة الداكنة، وشاهدت رمالاً كثيرة فسيحة، ولكنني لو أُشاهد رملاً ممتلئاً بالوضوح والغموض معاً مثل هذه الرمال الشرسة. وعشت أماسي كثيرة تحاذي المجهول، ولكنني ما عشت مثل هذا المساء الذي يتناوب علاقة عجيبة مع المجهول. ورأيت جنوداً كثيرين في حياتي، ولكنني ما رأيت، قبل الآن: كيف تقف عيون التاريخ على أصابع هؤلاء الجنود. وعرفت الصبر والقهر والغيظ، ولكنني أقرأ الآن لأول مرة، صدر البركان المتأهب للانفجار. وتعرفت على أنواع كثيرة من الصمت، ولكنني لم أر صمتاً أكثر حكمة وقسوة من هذا الصمت الرابض كالأعجوبة على قناة السويس...**

---

(1) فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 11. وينظر: محاضرات عن فن المقالة الأدبية: 64.

(2) يوميات الحزن العادي: 171- 173.

(3) إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير: 159.

**والحرب هناك لا تكتب بالحبر والمزاج، إنها لغة الموت الحقيقية. وهي ليست قصفاً إذاعياً يعقبه نشيد الختام السلبي، إنها الصمت الفاعل الذي يعقبه انفجار البارود واللحم البشري، إنها مهارة الموت الذي يرد إلى التاريخ نكتته الممجوجة التي أطلقها ذات يوم عندما كان شغوفاً بالمزاج. " إن زرقة السويس تشطرني شطرين "))**[1].

هكذا تعبر المقالة الوصفية عن مساحة مضطربة ومتأججة مملوءة بالنبض والنار، لتعبر عن حالة الإنسان الذي يلتهب بالألم والغضب، والأسى الإنساني إزاء حالة الحرب التي تعد لديه فعلاً مدمراً وفناءً قاسياً لمكونات الحياة البشرية أينما اضطرمت.

يعتمد الوصف " على دقة الملاحظة وعلى التعاطف العميق مع الطبيعة الذي لا يحور إلى عاطفة مسرفة، ثم على الوصف الرشيق المعبر الذي ينقل أحاسيس الكاتب مصوراً الطبيعة كما تعكس مرآة نفسه بصدق وإخلاص "[2] وحين يلجأ الكاتب إلى هذا الوصف ليفيد في توضيح الفكرة التي يريد أن يعرضها، فالوصف هنا وسيلة لا غاية[3].

لعل لحياة درويش ونشأته في قرية البروة، كانت السبب الذي ألهمه هذا الفن الوصفي من خلال تعمق إحساسه بالطبيعة وعلاقته الوجدانية فيها، فضلاً عن قلبه المتفتح وعقله النير فلا يمكن لهذا الكاتب أن يتجاهل الشجر البرتقال والبساتين والبحر والرمال والصخور، إذ إنه في وصفه يبتعد عن التجرد اللفظي لها. لتتحول إلى رموز وإشارات " جاءت ممزوجة بتجربته الإنسانية والوطنية"[4].

لقد أعلن محمود درويش في وصفه الطبيعة وكيفية التعامل معها في مقالته (حياتي وقضيتي وشعري) ليبين لنا رؤيته عن الطبيعة والابتعاد عن الوصف التجريدي لها:

**((على اعتبار أنها لوحة جميلة، إن هذه الطبيعة تستمد حيويتها ومدلولها وقيمتها من خلال تعامل الإنسان معها، إن اهتمامي بالبرتقال والزيتون مستوحي من**

---

(1)وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 43- 44.

(2) فن المقالة: 114.

(3) ينظر: في الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية: 138. وينظر: في الأدب وفنونه: 70.

(4) محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، رجاء النقاش: 168.

**واقع الإنسان الذي غرس هاتين الشجرتين وسقاهما بالعرق والأمل منتظراً ثمار ما أعطى، هذه العلاقة بين الزارع والشجرة تحمل مدلول استمرار الحياة والأمل والوطنية والتلقائية))**[1].

وفي مقالة (دفاع عن الشجر) يحول درويش علاقة الشجرة بالأرض التجريدية إلى علاقة رمزية وهي علاقة الإنسان بالوطن إذ إن الشجرة هي رمز الأرض وهي رمز للوجود والعطاء والبقاء، فيصف من خلالها فضائل الشجر وولعه الشديد بها:

**((ما جئت لكي أعدد فضائل الشجر؛ لأنها أكبر من أن تحصى، وأجمل من أن تمجد وأشهر من أن تقدم! جئت لأدلي بهذا الاعتراف: أنا مولع بالشجر إلى درجة الغيرة، ويصعب علي أن اصدق حكاية عداء واحدة بين إنسان وشجرة، حتى لو كانت ثمرة منها سبباً في خروجه من الجنة! حتى الله سبحانه وتعالى عندما أراد إغراء الإنسان بالجنة أسرف في وصف الشجر، ويصعب عليَّ أيضاً من أن أصدق قتل الشجر لا يعتبر جريمة.**

**إن الشجر يحمل مجدين: مجد الجمال، ومجد المنفعة. وإذا كان هنالك فرق أحياناً بين الشيء الجميل والشيء النافع؛ فان الشجر قد حل المشكلة بأروع برهان. والشجر لا يبعث البهجة والرضا والنمنمة في القلب فحسب، بل يمد أيضاً بأناملة الخضراء إلى عقولنا، فيعلمنا الكثير الكثير: يعلمنا مثلاً كيف تدوم الخضرة في الفصول الأربعة في محاصرة الزمهرير.. في تأفف الحر.. وفي غضب الريح. وهذا الدرس الذي يلقنا إياه الشجر بعفوية عذبة تعبنا حتى سميناه الأمل))**[2].

فالشجرة هي الوطن، والمزارع هو الفلسطيني الذي ليس لديه إلا ثلاثة خيارات هي: " أما الموت عن الشجرة، وأما الهجرة الإجبارية عنها فالتصقت بذاكرته وأصبحت رمزاً للوطن، وانتظار العودة، وأما بقي أمامها دون أن يمتلك القدرة على احتضانها واستمرار العلاقة بها، فتحولت لديه إلى نبع من الظمأ أو إلى امرأة تسبى أمام عينيه، هكذا لم يبق من الشجرة إلا مدلولاتها، أي أن الواقع تحول إلى رمز أو إيحاء "[3].

ومن أجل ذلك يقوم محمود درويش بخلع الصور التجريدية إلى صور نابضة بالإيحاء والرمز.. فتقدم مقالة (بيت مسكون بالأشباح) ما ساد مقالة (دفاع عن الشجر) من رموز موحية، فالبيت يرمز للوطن، والأشباح ترمز إلى الأعداء، فالمقالة تبدأ من الإحساس بأهمية البيت؛ لأنه وسيلة الاستقرار والأمان إلى إحساس الكاتب ذاته بالضياع والحزن اللامتناهيين حيث التداعي والذكريات فيقول:

---

(1) شيء عن الوطن: 273- 274.
(2) شيء عن الوطن: 90- 91.
(3) المصدر نفسه: 275.

**((يصبح الرجل طفلاً، دائماً، حين يقابل أمه وهذا الرجل العائد من العودة يحدثني عنها كأنه يصلي... لم ير فلسطين منذ عام الخروج الأول، كانت تتجدد في الحلم وتتجلى في الرؤيا، وحين رآها كانت أجمل، هجمت عليه، بكليتها، فلم يمسك بأي طرف من أطرافها، كان يصف ويتلعثم، كل حديث عن هذا الوطن تأتأة. ومن يستطيع تنظيم عواطفه لا يكون عاشقاً، يكون محترفاً... أخذت أفراد العائلة، وسرنا في أزقة يافا نبحث عن بيتنا القديم، تغير شيء كثير ولكن حاستي لم تغيير، ووجدت البيت، لم يسمح لنا سكانه الجدد بالزيارة... أغلق" السكان الجدد " باب البيت يذعر واضح. وانتشر أصحاب البيت على الدرج وفي الحديقة، انصرف بعضهم إلى التعرف على أغصان الشجر وعلى التربة السمراء، وانصرف بعضهم إلى " سرقة " البيت والحديقة بالكاميرا، وسرق البعض حفنة تراب للذكرى والطهارة وتجديد الروح.. هم يسرقون البيت، ونحن نسرق صورته، يا للمفارقة..))**[1].

لقد استطاع محمود درويش في مقالاته الوصفية أن يوحي للقارئ بأنه لا يتعامل مع الطبيعة والبيئة والأشياء بشكل مجرد؛ وإنما ممزوجة بمشاعره وأحاسيسه وحكايته، وأبطاله وملامح الوطن والناس وهو بذلك يخلق ويبتكر ويكشف عن رموزه التي طالما تعلقت بها نفسه، لذلك نجد مقالات عديدة أخرى في وصف البحر والمساء، وعيد الميلاد، وتأملات السجين في زنزانته[2].. وهي بحق انثيالات من خياله ووجدانه وأحاسيسه المليئة بالحزن والهزيمة والانكسار.

2- **الاتجاه الإنساني**

ليس ثمة سبيل إلى المقالة إلا أن " تتخذ من جذورها (الذات) ـ ذات الكاتب ــ متوغلة في القلب والعصب، ولترى النور بعد ذلك عن طريق الذهن أو العين على الوجه الذي تحتاج... واستكمال مدى الانفعال وعالم الخاطر في عدد محدود جداً من الصفحات وتخف الحال أو تعنف، تمتد أو تقصر"[3] وهي في ذاتيتها تلك تكون مدمنة على الصور الإنسانية أو مواضيع الإنسانية التي يترجمها الكاتب للكشف عن الدواخل الإنسانية وما يعتريها من مد وجزر الزمان بها. لذلك يضع فيها أحاسيسه ومشاعره وصوره الكثيرة الإنسانية التي تنثال عليه من حياته ومحيطه المزدحم.

---

(1) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 106 - 108.

(2) ينظر: مثلا مقالات: ذاهب إلى البحر: 114. يوميات يوم عربي: 98. مقهى صغير على الشاطئ: 73. الزنزانة: 76. ضمن (وداعا أيتها الحرب. وداعا أيها السلام) وينظر: أيضا مقالة: حيفا بلا بحر: 94. ضمن (يوميات الحزن العادي).

(3) المقالة والرثاء، د. علي جواد الطاهر، مجلة الرابطة، النجف، العدد (3) لسنة 1975: 23.

ونعني بالحس الإنساني الذي " ينبثق عن النزعة الإنسانية المتأصلة في نفوس كتاب كثيرين مما دفعهم إلى المشاركة الوجدانية لبني جنسهم وتناول قضاياهم، والتطلع معهم نحو آمالهم وأهدافهم، حب الإنسان للإنسان، حيث يرى الرومانسيون الحب رأس الفضائل وهو عندهم وسيلة تغير النفوس وصفائها، ويتخذونه عماد مجتمع مثالي ينشدونه دائماً، مجتمع يقوم على دعائم المساواة والتراحم والتعاطف والإخاء، مجتمع متحاب لا بغض فيه "[1].

**أ- القيم الإنسانية**

وربما أن حياة محمود درويش وإنسانيته المتدفقة، ومشاعره العميقة أتاحت له أن يمتلك حس إنساني يمارس فيه كل طقوس العواطف الإنسانية وفي ذلك يقول في مقالة (هند تخربش على الجيتارة):

**((وليست ثروة فلسطين برتقالاً وضحايا، هي أغنى من ذلك، إنها صميم العالم والمعاني التي هذبت البشرية.**

**حدَّق في الماء والطين: إنها رحم الحرية والعدل. وان من يعنيه التعرف على جذور الإنسان فيه ليس بقادر على الراحة ما دام المصير الفلسطيني الحاضر بعيداً عن الهدايا والنعم التي قدمتها فلسطين إلى العالم. هذه الأرض الرائدة ليسن محطة لتصدير القيم والأنبياء فحسب. إن الكفاح من أجل أن يكون مصيرها امتدادا لعطائها هو مهمة تتعدّى مسؤولية الفلسطينيين وحدهم إلى دفع الإنسانية نحو اختيار جدارتها مما تتمتع به من قيم))**[2].

هذا هو قدر العربي وهو قد أنساني يسعى لتحقيق الحب الإنساني المنشود، فمحمود درويش في نزعته الإنسانية " يتخذ الكلمة وسيلة ليعبر بها عن خلجات الإنسان ومكنون أفكاره ومشاعره وعواطفه ليجعل منها صلة الوصل بين المشاعر الإنسانية الباحثة عن الخير المتجهة إلى الأفضل في سبيل سعادة الإنسان في مختلف آفاق الأرض"[3].

وخلال الحرب التي نشبت بين العرب واليهود على أثر ذلك القرار المشؤوم، تشرد مليون عربي فلسطيني فعاش أكثرهم في خيام، أو في بلاد عربية أخرى... وهكذا أصبحت المأساة الفلسطينية فقد عانى الشعب من غربة وتشرد واضطهاد وسلب، ولذلك أصبحت مأساة فلسطين مأساة الإنسانية؛ لأنها تمثل الإنسانية وهي تتحدى الأعداء الذين يحاولوا محو الإنسان العربي، من خلال المجازر الدموية العديدة

---

(1) فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 123.
(2) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 134.
(3) دفاعاً عن فن القول، عبد الكريم غلاب: 13.

التي حاولوا فيها أن يثيروا الرعب والخوف في قلوب العرب، وأول هذه المذابح في تاريخ الإنسانية مذبحة (دير ياسين) التي قام بها الإسرائيليون في التاسع من نيسان عام 1948، وفي هذه المذبحة العنيفة قتل العدو الصهيوني ما يقرب من مئتي وخمسين مواطناً عربياً من نساء وأطفال وشيوخ، ولقد كان لهذه المجزرة أثرها الكبير على العرب والإنسانية جمعاء. وعن هذه المجزرة المدمرة، يعبر درويش في مقالته (مقالة الوطن بين الذاكرة والحقيبة) إذ يقول: ((**دير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الآن، أن تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديداً صحيحاً لمفهوم الوطن. ليست هذه حرباً ولا كفاحاً هذه مجزرة..**))[1].

ودير ياسين وجه من وجوه الإبادة القاسية للإنسانية أدت بالنتيجة إلى ترك المواطنين ديارهم والهجرة إلى البلاد العربية, وفي عام (1956) قدمت إسرائيل أنموذجاً آخر من سياستها الإرهابية المتنافية مع القيم الإنسانية جمعاء, في مذبحة جديدة في قرية (كفر قاسم) العربية, وهي بذلك تهدف إلى القتل والسلب وإخراج العرب من ديارهم.

وتبدأ المأساة بتبليغ مختار القرية بفرض منع التجول في القرية, وفي ظل هذه المجزرة تولد مقالة (من يقتل خمسين عربيا يخسر قرشاً) التي تحمل لوعة قلب ذبيح, وعقل مذهول من هول الفاجعة, وأنين نسوة فرقت أيدي الأعداء أشلاء أبنائهن. فهل ترتجف الإنسانية لهذه الريح العاتية اللاإنسانية. وكذلك لن تدخل هذه المجازر إلى دائرة النسيان, بل ستعمق كراهيتنا للظلم والاغتصاب, ومن أجل أن يتعمق الحب للوطن المذبوح, فيقول:

((**هنا ينامون, أسماؤهم كثيرة وموتهم واحد, كانوا متعبين وكان الغروب صغيراً، فسقطوا بسهولة ولم يقولوا شيئاً، لأن الموعد كان مفاجئاً... ليست مذبحة كفر قاسم يوما للذكرى, وليست مرحلة يغلبها النسيان. إنها تاريخ كراهية ممتد منذ استل هرتسل سيفه من التوراة واشهره بوجه الشرق, فسكان هذه القرية المسحوقة المهملة لم يفعلوا شيئاً يثير غضبة أحد ولو كان عدوا متطوعاً، لم يقاتلوا إلا الطبيعة القاسية والبؤس الأسود، فمن أجل ماذا ماتوا؟... بوسعنا أن نقول إنهم ماتوا من أجل أن نعمق كراهيتنا للظلم والاغتصاب، ومن أجل أن نعمق عبادتنا للأرض، ولكننا لا نحتاج هذا البرهان الضاري... إننا قادرون على تنمية حاسة الحب والكراهية بعيداً عن هذا الموت المجاني، فمن أجل ماذا ماتوا إذن؟**))[2].

إن الوحشية الصهيونية والعدو الصهيوني عدو لجميع الشعوب فكان شعار الصهيونية لا رحمة ولا شفقة، لذلك أراقت الدماء وسلبت الأرض، واغتصبت الناس،

---

(1) يوميات الحزن العادي: 54.
(2) المصدر نفسه: 107- 108.

وانتهكوا حقوق الإنسان في العيش بحرية وأمن وسلام، ولعل المحاورة التي حدثت بين المحامي والجندي الإسرائيلي تكشف عن مستويات النفس الإسرائيلية القائمة على القتل والكره كما في مقالة (من يقتل خمسين عربياً يخسر قرشاً).

**((في المحكمة ـــ المسرحية ـــ استجوب المحامي جندياً إسرائيلياً من الذين اشتركوا في المذبحة:**

- **هل صحيح انك تعمل في البلاد, وانه طيلة حياتك أدخل إليك الشعور بأن العرب هم أعداؤنا؟.**
- **الجندي: نعم.**
- **المحامي: هل صحيح انك تحمل هذا الشعور نفسه تجاه العرب في إسرائيل والعرب خارجها؟.**
- **الجندي: نعم ليس عندي, أي فرق.**
- **المحامي: هل صحيح انك شعرت بأنك إذا لم تنفذ الأمر بقتل كل عربي في كفر قاسم إذا رايته خارج بيته, فانك تكون قد خنت الروح التي تربيت عليها في الجيش وفي حرس الحدود؟.**
- **الجندي: نعم.**
- **القاضي: هل كنت ستقتل كل واحد؟.**
- **الجندي: نعم.**
- **القاضي: حتى لو كان ذلك الشخص امرأة أو طفلاً؟.**
- **الجندي: نعم.**
- **القاضي: كنت تقتل كل من تراه؟.**
- **الجندي: نعم.**

**وهذا ما حدث فعلا..))**[1].

ما عسانا أن نفعل إزاء هذه الوحشية المتطرفة التي تجعل من موت الآخرين طعماً لسعادتها, والتي لا ترتد أبدا عن فرض الكراهية التي تحيا بها والتي تسلب الإنسانية حقها في السلام, لتحويلها إلى ركام هائل من الجثث التعبة والحزينة لتنهي آمال الفلسطينيين بالخيبة وليعم العالم الفوضى والوحشية ولكن أين الحس الإنساني في

(1) يوميات الحزن العادي: 108- 110.

كل ذلك؟. إنه الحس الذي " يحرص الكاتب على تأكيد مسألة الحرية, وحرصه على التنفير من اغتصاب حق الإنسان في الحرية "[1].

يعجب محمود درويش كل العجب من هذا العالم الذي بدأ يتخلى عن إنسانيته والذي يقوم على التنازعات والخلافات، والتسابق على التسلح وإثراء أسواق الأسلحة بكل وسائل الإبادة الجماعية بالتحديد، أما الفلسطيني فهو مشرد، مقيد وطنه، واللاجئ محبوس في خيام يعبر من خلالها الموت إليه في أي لحظة، وأصحاب الحضارة والتمدن دائما يكونون القتلة، وإزاء ذلك لا ينسى تعاطفه الإنساني مع ما جرى في اليابان، وقد قتل شعباً بكامله، وحكم على أجياله بالتشوهات والأمراض، وينطلق الكاتب من نوازعه الإنسانية ليكشف همجية الأعداء في مقالته (ذاهب إلى العالم. غريب عن العالم) فيقول:

((**هكذا ينام العالم، وهكذا يصحو، وهو مدجج بالسلاح، وأنا مدجج بالقيود، القوي متحضر، والضعيف بربري، وليس التاريخ قاضياً. التاريخ موظف، ماذا كان الهنود الحمر سيقولون لو هزموا غزاتهم، والذين يتباهون بالحضارة والتمدن، هم غالباً ما يكونون القتلة... القتلة... انظروا هذا الثلاثي: الأول- إبادة شعباً في الماضي، ويبيد اليوم شعباً وتربة في جنوب شرق آسيا، ويفجر علامة تحضره الكبرى – القنبلة الذرية - في شوارع العالم.. يطالبني بالخروج من حلبة الإنسانية ومن الكرة الأرضية لا ننى إرهابي. والثاني- ليس من الحكمة أن نذكره بماضيه. لقد أحرق عشرات الملايين من البشر باسم الحضارة والتمدن, والآن يتعانق القاتل والضحية وينجبان وليداً جديداً هو الثالث- فماذا ينتج عن زاوج الإرهاب إلا الإرهاب! وجاء الثالث المدجج بالتوراة والسلاح، واقتلعني من جبالي وسهولي ودحرجني من الحضارة إلى حضيض**))[2].

إن أهم ما يميز الاتجاه الإنساني في مقالات محمود درويش بأنها نبرات احتجاج على غياب الإنسانية التي حلت محلها الوحشية والإرهاب.

**ب - الرثاء**

يعد الرثاء من الفنون الأدبية صدقاً لأنه " يصدر أغوار النفس الإنسانية ويعبر عن اللوعة والحسرة التي تنتابها عند فقد من أحببت "[3] وقد زخر الأدب العربي بلحظات الرثاء والعزاء والتأبين سواء في الشعر أم في النثر عبر العصور الأدبية المختلفة.

---

(1) فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 127.

(2) يوميات الحزن العادي: 173- 174.

(3) شعر الرثاء واستنهاض العزائم , د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم: 7.

يتحدث درويش عن الرثاء في شعره قائلاً: " المرثية في شعري ليست اختياراً وليست شكلاً لتطوير القصيدة، ومن المجون أن أقول بأنني استخدم أجساد أصدقائي لتطوير قصيدتي.. والرثاء باب في الشعر كما هو معروف إلا انه عندي ليس باب. إنه انغماس اضطراري في المأساة التي تتطور في بعض المراحل حتى تصل إلى الذبح, ونحن الآن في حالة ذبح، ولا يملك الشاعر ترف الاختيار في هذا المجال، كما إننا يمكن أن نلاحظ على المستوى العالم بأن شعر الرثاء هو الذي ساد أكثر من عشرين سنة مضت, رثاء الأشكال ـــــ الأحلام وحتى اللغة، والرثاء الذي استعمله في شعري ليس مجانياً, ولا رثاء تجريدياً, بل رثاء تجسيدي, والقصيدة عندي تبحث عن فتات قلب يتساقط وتجمع أجزاء اللحم الفلسطيني المرمي في الطرقات, تجمعه وتعيد تجسيده وتشكيله والإعلان بأننا نقبل هذا الدرب والاختيار"[1].

يأتي الرثاء في المقالة ليشكل أبرز الألوان الوجدانية الحادة بقتامة الحزن الذي ترتديه النفس في أحلك المواقف واشد الخطوب وأفدحها[2]. كما أن للرثاء خصوصية في المقالة إذ إنه لابد أن " يصدر عن قلق يحسه الأديب عما يحيط به من صور الحياة، وأوضاع المجتمع على شرط أن يجيء السخط في نغمة هادئة خفيفة, هي اقرب إلى الأنين الخافت منها إلى العويل الصارخ"[3] ولابد من أن يكون الرثاء بالتصوير دون جفاف ومبالغة[4].

يعد الرثاء من أبرز مضامين المقالة الذاتية لدى درويش التي كتبها في ذكرى المآسي التي مرت على فلسطين.. وربما الذكرى لا تشفي غليل الأنين, وهول المأساة.. وإنما يقف الكاتب إزاءها وقفة صمت.. من أجل الذين ماتوا في الطرقات وتحت الأنقاض, واصبح الموت.. جزء من الحياة الإنسانية ولم يعد الرثاء لدى درويش " مسالة رثاء ـــــ بقدر ما هي شاعرية تتخذ المقالة نافذة "[5].

إن عالم محمود درويش عالم مليء بالمآسي والموت؛ لذلك كان الرثاء في مقالاته يتناسب مع ما يحدث في عالمه (الوطن) لذا اختار للرثاء ثلاثة أوجه هي:

1. رثاء النفس.
2. رثاء الآخرين.

---

(1) محمود درويش يوضح بعض الملابسات التي تحيط بشعره , لقاء أجراه سليمان الشيخ , مجلة البيان , العدد (190) لسنة 1982: 32.
(2) ينظر: فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 23.
(3) جنة العبيط أو أدب المقالة: 4.
(4) ينظر: مقدمة في النقد الأدبي:292.
(5) المقالة والرثاء: 27.

3. رثاء المدن.

ومن مقالات النوع الأول: رثاء النفس مقالة (وطن بقلم الرصاص) التي تقدم المصير الذي سيكون عليه المعذب في السجون الصهيونية، وما سيحل في مصيره، هل سيموت؟ أم ينتظر في سجونهم حتى يتفتت لحمه بين أصابعهم؟ ثم يمشي دمه ليتصاعد أعراساً ومآتم وزنزانة تنقرض ليصبح مسيحاً بلا مسامير, فيقول:

((**كانوا يقدمون له هدية السنة الجديدة, كانوا يزفون له بشرى: سينقل من غرفة التعذيب إلى الزنزانة, مسيح بلا مسامير، وفي الجدران نافذة صغيرة تطل على البحر,... إن العصافير ليست حرة، وأن الوطن يولد في منفى.. أني أروض حالتي والتصق بالبعيد وزندي يتحرر في قيدي,... كانوا يرسمون على جسمه خطوطاً هابطة صاعدة تلتقي أطرافها في دوائر تشكل خارطة،... وهذه قطرة من دمي أُقدمها مساحة تفصل بين يومين فيتحولان إلى عهدين. قطرة دم واحدة، منذ هذا التاريخ، تجعل اليوم الذي يسبقها عهداً ينزل إلى الماء لا ليغتسل بل ليغرق.. وهذه قطرة أخرى أُقدمها لكي لا تبقى الخارطة ورقاً بلا نبات وجداول، وهذا دمي كله، أصبه كله للشجرة التي ما زالت نائمة في التراب.. كانت أجراس الميلاد تدق.. كانت أجراس الميلاد تدق، وكان المسيح يملأ الليلة والعالم، وكان حوار الصخرة والفكرة يجعل الصلاة نزيفاً، ويحول النزيف إلى صلاة**))[1].

كما يبدو فان حالات الموت هي حالات متكررة، فأصبح الموت في فلسطين جزءاً من تاريخها؛ لذلك فان الحس الواعي لحقيقة الموت لدية ليست حالة فناء بقدر ما تمثل حالة انبعاث التي لا ترد صحوتها إلا بالدماء والشهادة والجهاد. ولو رجعنا إلى المقالة السابقة وإلى تأمل سريع لشخوص تجربة الكاتب سنجدها تستوعب معاناته إزاء ما يعانيه من السجون، التي يحاول الأعداء أن ينتزعوا الروح من الجسد، والدم من الشرايين، لينتهي إلى انتظار الموت... حين يملأ ميلاد المسيح الليلة والعالم فرحاً، وبهذا التعبير الإيحائي يعمد الكاتب إلى رسم المحنة الفلسطينية.

أما مقالة (محاولة رثاء بركان) فهي تقوم على رثاء الشهيد غسان كنفاني الكاتب الفلسطيني المشهور، الذي نال بموته ذرى المجد. وتعد هذه المقالة من النوع الثاني من الرثاء وهو رثاء الآخرين فمن الطبيعي أن يرثي درويش صديقه لما أبداه هذا الكاتب والمناضل من أجل فلسطين فكان قلمه رمح في قلوب الأعداء، إذ يقول:

((**اكتملت رؤياك، ولن يكتمل جسدك. تبقى شظايا منه ضائعة في الريح،**

(1)وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 11- 16.

**وعلى سطوح منازل الجديران، وفي ملفات التحقيق. ولم يكتمل حضورنا نحن الأحياء ـــــ طبقاً لكل الوثائق. نحن الأحياء مجازاً، وأنت الميت ـــــ طبقاً لكل الوثائق، أنت الميت مجازاً. نحزن من أجلك؟ لا. نبكي من أجلك؟ لا. أخرجتنا من صف المشاهدين دفعة واحدة وصرنا نتشوف الفعل ولا نفعل. أعطيتنا القدرة على الحزن، وعلى الحقد، وعلى الانتساب، وكنا نتعاطى الحزن بالأقراص ونتعاطى الحقد بالحقن، ونتعاطى الانتساب بالوراثة... ومن أنت يا غسان كنفاني! حملناك في كيس ووضعناك في جنازة وبمصاحبة الأناشيد الرديئة، تماماً كما حملنا الوطن في كيس، ووضعناه في جنازة لم تنته حتى الآن، وبمصاحبة الأناشيد الرديئة... كم يشبهك الوطن ! وكم تشبه الوطن... ولم تعرف من نرثي منكم، فالكل قابل للرثاء))**[1].

لقد جاءت هذه المقالة وهي تفيض بالحسرة والألم لفقدان الصديق وهي لا تقل عاطفة وحزنا، من رثاء الأقرباء والآباء وذوي القرابة. فالمناضل والبطل يكون الموت رفيقه؛ لأنه يتوقع الموت في أية لحظة[2]. كما أن الوطن والشهيد حالة واحدة تمتزج لدى محمود درويش.. ولأن الشهيد غسان كنفاني من رموز البطولة الفلسطينية، والملحمة الإنسانية الأزلية.. ففي المقالة إحساس فاجع بالموت، ونلمس أن حقيقة الموت فيها توحي إلى الحياة والهوية إذ " لا يكون الفلسطيني فلسطينياً إلا في حضرة الموت، قولوا للرجال المقيمين في الشمس أن يترجلوا ويعودا من رحلتهم، لأنّ غسان كنفاني يبعثر أشلاءه ويتكامل، لقد حقق التطابق النهائي بينه وبين الوطن"[3] والكاتب في رثائه هذا لا يقدم لنا مشاعر الحزن والذكريات والانفعال والعويل؛ بل الرثاء لديه تعبير عن الموت، والرفض والتحدي، والتحام الوطن بجسد الشهيد، ليكون التوحد بينهما.

أما مقالة (صمت من أجل غزة) فهي تقدم رثاءً لمدينة من مدن فلسطين التي باتت جميعها تحتضر فيقول:

**((تحيط حاضرتها بالألغام... وتنفجر لا هو موت ولا هو انتحار، انه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة... منذ أربع سنوات، ولحم غزة يتطاير قذائف، لا هو سحر، ولا هو أعجوبة، انه سلاح غزة في الدفاع عن بقائها، وفي استنزاف العدو... لأن الزمن في غزة ليس عنصراً محايداً، انه لا يدفع الناس إلى برودة التأمل ولكنه يدفعهم إلى الانفجار والارتطام بالحقيقة ـ الزمن هناك لا يأخذ الأطفال تواً من الطفولة إلى الشيخوخة، ولكنه يجعلهم رجالاً في أول لقاء مع العدو، ليس الزمن في**

---

(1) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 17- 18.
(2) ينظر: الرثاء في الشعر العربي، د. محمود حسن أبو ناجي: 86.
(3) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 18- 19.

**غزة استرخاء، ولكنه اقتحام الظهيرة المشتعلة... ونظلم غزة لو مجدناها، لأن الافتتان بها سيأخذنا إلى حد انتظارها، وغزة لا تجيء إلينا، غزة لا تحررنا ليست لغزة خيول ولا طائرات ولا عصي سحرية ولا مكاتب في العواصم. إن غزة تحرر نفسها من صفاتنا ولغتنا ومن غزاتها في وقت واحد. وحين نلتقي بها ـــ ذات حلم ـــ ربما لن تعرفنا، لأن غزة من مواليد النار ونحن من مواليد الانتظار والبكاء على الديار..))**[1].

فالكاتب في هذه المقالة لا يزجي بالبكاء على غزة المدينة العربية البطلة التي تقاوم الغزو الصهيوني الهمجي، فالمقاومة الشعبية المتلاحمة التي تريد أن تطرد العدو من ثيابها، وموت غزة هو إعلان عن جدارتها بالحياة.. فالرثاء في مقالات محمود درويش يحمل طابعاً خاصاً به، فهو لا يتوجه إلى صفات المرثي، ويعكس مشاعر الحزن والألم إزاء الأموات؛ وإنما يحمل الانفجار، والمقاومة، والتحدي، والنفير، والتوحد لمواجهة العدو.

(1) يوميات الحزن العادي: 163- 165.